كتب المناقب مصدرًا لدراسة الدور المجتمعي لمتصوفة المغرب الأقصى في عصر الموحدين

(٥٤١- ٦٨٨ هـ / ١١٥٦-١٢٦٩م)

أ.حسين سيد عبد الله مراد (•)

ملخص

تعد كتب المناقب واحدة من أهم المصادر التي أُطلق عليها "المصادر الدفينة"، إذ تمكننا من إلقاء أضواء على تاريخ المهمشين، ذلك التاريخ الذي صمتت عنه المصادر الإخبارية. وقد أبرزت المصادر المناقبية العديد من الممارسات الاجتماعية التي لا تتردد في المصادر المتاحة، ومما يميز كتب المناقب ضبط أماكن الأحداث وزمانها وهي معطيات كثيرًا ما تغيب في النوازل الفقهية.

في ضوء ذلك تأتي هذه الدراسة بعنوان " كتب المناقب مصدرًا لدراسة الدور المجتمعي لمتصوفة المغرب الأقصى في عصر الموحدين (٥٤١ – ٦٨٨ هـ / ١١٥٦-١٢٦٩م)"، وذلك اعتمادًا على أهم كتب المناقب التي تنتمي لعصر الموحدين، منها كتاب "المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد " للتميمي المتوفى عام ٦٠٣-٦٠٤هـ، وكتاب "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لابن الزيات التادلي، المتوفى عام ٦٢٧هـ، بالإضافة إلى كتاب "دعامة اليقين في زعامة المتقين، لأبي العباس العزفي، المتوفى عام ٦٣٣هـ.

(•)أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الدراسات الأفريقية العليا- جامعة القاهرة.

ولعل ما يبرهن على أهمية كتب المناقب بالنسبة للباحثين في التاريخ أنها لم تكتب على أيدي رجال السلطة بل كتبت بدافع ذاتي لمؤلفها، فالتادلي يذكر سبب تأليفه لكتاب التشوف، ويرجع ذلك –من وجهة نظره– إلى إهمال حياة الصالحين والزهاد والصوفية في أقصى المغرب حتى جهلت آثارهم. إن ما قام به التادلي وغيره من كتاب المناقب قد رد الاعتبار لتاريخ البسطاء والفئات الدنيا من المجتمع.

الكلمات المفتاحية: التصوف؛ المتصوفة؛ المغرب الإسلامي؛ الموحدون؛ مجتمع المغرب في العصر الموحدي.

Abstract

Al-Manaqib books are one of the most important sources that called "buried sources", as they enabled us to shed light on important history, a history that was silent about independently. The superiority of Al-Manaqib has been highlighted by many scientific experiments that are not specified in the available sources, and what the books of Al-Manaqib require in terms of specifying the places and times of events, which are often absent in jurisprudential Nawazil. In light of this, this study comes under the title "Al-Manaqib books as a source for studying the societal role of the Sufis of Morocco in the era of the Almohads (541 - 688 AH / 1156-1269 AD)," and thus continues to follow the books of Al-Manaqib that were learned in the era of the Almohads, including the book "Al-Mustafad fi Manaqib al-Ubada Fi Madinat Fas wma Yaliha min Albilad" by Al-Tamimi who died in 603-604 AH, and the book "Al-Tashawwuf ila Rijal Al-Tasawwuf wa Akhbar Abi Al-Abbas Al-Sabti" by Ibn Al-Zayyat Al-Tadali, who died in 627 AH, in addition to the book "Daamat Al-Yaqin fi Za'amat Al-Muttaqin" by Abi Al-Abbas Al-Uzafi, who died in 633 AH.

Keywords: Sufism; Sufis; Islamic Maghreb; Almohads; Moroccan society in the Almohad era

مقدمة:

لا تعين المصادر الإخبارية المتاحة لكتابة تاريخ المغرب الأقصى في كتابة التاريخ الاجتماعى لهذه البلاد، خاصة الممارسات الاجتماعية لطبقات المجتمع تلك الممارسات المغيبة في تلك المصادر. كما أن هذه المصادر لا تمكن الباحث في التاريخ الاجتماعى من أن يرسم صورة أقرب إلي الواقع للكيفية التى كان يعيش بها أفراد المجتمع . ومن هنا فإن دعوة العديد من الباحثين الرواد في التاريخ الاجتماعى للمغرب الأقصى أمثال علامة المغرب المرحوم الأستاذ محمد المنونى والدكتور محمود اسماعيل والدكتور إبراهيم بوتشيش، بضرورة الاعتماد على مصنفات تنتمي إلى حقول مختلفة كالمناقب، والنوازل والفتاوى والفقه، والحسبة، وكتب الوثائق والجغرافيا والرحلات، وكتب الفلاحة، وغيرها. وقد أطلق المرحوم محمد المنوني على هذه المصنفات "المصادر الدفينة" التي تقدم مادة جديدة عن بنيات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى الذهنيات.

وتعد كتب المناقب الأهم بين هذه المصادر الدفينة، إذ تمكننا من إلقاء أضواء على تاريخ المهمشين، ذلك التاريخ الذي صمتت عنه المصادر الإخبارية. وقد أبرزت المصادر المناقبية العديد من الممارسات الاجتماعية التي لا تتردد في المصادر المتاحة، ومما يميز كتب المناقب ضبط أماكن الأحداث وزمانها وهي معطيات تصعب في مدونات النوازل الفقهية.

واعتمدت هذه الدراسة على أهم كتب المناقب التي تنتمي لعصر الموحدين، منها كتاب "المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد"

للتميمي المتوفى عام ٦٠٣-٦٠٤هـ[١]، وكتاب "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" للتادلي، المتوفى عام ٦٢٧هـ[٢]، بالإضافة إلى كتاب "دعامة اليقين في زعامة المتقين" لأبي العباس العزفي، المتوفى عام ٦٣٣هـ[٣].

إن كتب المناقب لم تكتب على أيدي رجال السلطة بل كتبت بدافع ذاتي لمؤلفها، فالتادلي يذكر سبب تأليفه لكتاب التشوف، ويرجع ذلك - من وجهة نظره - إلى إهمال حياة الصالحين والزهاد والصوفية في أقصى المغرب حتى جهلت آثارهم[٤]. إن ما قام به التادلي وغيره من كتاب المناقب قد رد الاعتبار لتاريخ البسطاء والفئات الدنيا من المجتمع[٥].

تبين كتب المناقب عوامل ازدهار التصوف في بلاد المغرب الأقصى في عصر الموحدين ،فقد ازدهر بتأثير عدة عوامل داخلية وخارجية، أسهمت في زيادة أعداد المتصوفة في تلك البلاد وفي ذلك العصر. منها التأثير المشرقى الذى صادف أرضًا خصبة، كما ساعدت عدة عوامل داخلية علي تحقيق النجاح الذى صادفه التصوف في المغرب الأقصى.

---

[١] انظر مقدمة تحقيق كتاب المستفاد للدكتور محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ٢٠٠٢، القسم الأول، ص ١٦ - ١٩.

[٢] انظر مقدمة تحقيق كتاب التشوف للأستاذ أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٤، ص ٥٠-٣٠.

[٣] انظر مقدمة تحقيق كتاب دعامة اليقين للأستاذ أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، ١٩٨٩، ص أ- ي.

[٤] التشوف، ص ٣١.

[٥] بوتشيش: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ٤٦.

أولاً – التأثير المشرقى:

وجدت الحركات الدينية التى ظهرت في المشرق الإسلامى منذ صدر الإسلام أصداء لها في بلاد المغرب، شاهدنا ذلك في ظهور مذهب الخوارج الذى انتشر في بلاد المغرب من أدناها إلى أقصاها، وكذلك الدعوة العلوية التى قامت علي أساسها دولة الأدارسة في فاس، والمذهب الشيعى الذى قامت على أساسه الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. لذلك كان الأمر سيبدو غريبًا لو لم ينجح التصوف المشرقى في النفاذ إلى بلاد المغرب الأقصى ويتغلغل فيه. فالتصوف المغربى وفد من المشرق[١].

يتضح التأثير المشرقى في وجود بعض مؤلفات كبار متصوفيه في المغرب الأقصى وقيام متصوفة هذه البلاد بدراستها شيوخًا ومريدين. كما وصل التأثير المشرقى عن طريق رحيل عدد من متصوفة المغرب إلى المشرق، بالإضافة إلى رحيل بعض صوفية المشرق إلى المغرب الأقصى لزيارة إخوانهم هناك.

ذاعت كتب بعض صوفية المشرق بين أيدى صوفية المغرب واطلعوا عليها وتأثروا بها. وقد ساعدت تلك المؤلفات في نقل صلحاء المغرب إلى مرحلة التصوف. ومن أهم هذه المؤلفات كتاب "الرعاية لحقوق الله والقيام بها" للمحاسبي[٢] المتوفى ببغداد في عام **٢٤٣** هـ/ **٨٥٧** م. فهذا الكتاب كان يدرس نظرًا لقيمته في هذا العلم، فقد تلقى هذا الكتاب أبو مدين شعيب المتوفى عام

---

(1) Bel ,A : La Religion Musulmane en Berberie, Paris, 1938 , Tome 1, p 343.

جورج مارسيه: بلاد المغرب الإسلامى وعلاقاتها بالمشرق الإسلامى في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الله هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، **١٩٩١**، ص **٣٣٢**.

(2) Massignon : Art Almuhsibi, in Encyclopedia of Islam.

عن المحاسبي، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، **١٩٦٨**، جـ **٢**، ص **٥٧، ٥٨**.

٥٩٠هـ/ ١١٩٣م سماعًا من الصوفي أبى الحسن بن حرزهم المتوفي عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م[١]. وكان ابن حرزهم يقوم بقراءة الرعاية على طلاب العلم وصوفيته، ولما توفي قام تلميذه الصوفي أبو موسى عيسى بن الحداد بخلافته في إقراء هذا الكتاب[٢]. وكان تأثير المحاسبى – من خلال كتابه – كبيرًا على صوفية المغرب، إذ وضع أسس التصوف الصحيح وقواعده فتصوفه كان بعيدًا عن الاختلاط بالآراء الفلسفية البعيدة عن روح الإسلام ، ويبرز هذا في كتابه معالم الطريق الصوفى، وطريقة تأديب المريدين[٣].

لقد وضع المحاسبى قاعدة الحياة التى ينبغى على الصوفى اتباعها وتقوم على أساس محاسبة الصوفى لنفسه، ويقول أبو مدين: بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة[٤]. كما أن أبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى المتوفي عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م قام بمحاسبة نفسه قبل أن يحاسبه الله[٥]. أما الصوفي أبو عبد الله محمد البردعى الأسود السجلماسى فكان يحاسب نفسه لشدة خوفه من الله[٦]، وصار على هذا النهج من محاسبة النفس عدد من متصوفة المغرب الأقصى منهم يحيى بن

---

(١) التادلى: التشوف إلي رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، ١٩٨٤، ص ٣٢٢؛ ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، نشر محمد الفاسى وأدولف فور، الرباط، ١٩٦٥، ص ١٤؛ المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨، جـ ٧، ص ١٢٧؛ السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٤ ، حـ٢، ص ١٨٩.

(٢) التميمي: مصدر سابق، ص ١٠٥.

(٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب الرعاية للمحاسبي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٣، ١٤.

(٤) ابن قنفذ : مصدر سابق، ص١٩.

(٥) التادلى: مصدر سابق، ص ١٨٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

صالح الهسكورى[١]، ومحمد بن عبد الله بن عثمان الصنهاجى المراكشى المتوفى عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م [٢] بالإضافة إلى متصوفة آخرين[٣].

كما تأثر صوفية المغرب الأقصى بكتاب أبي طالب المكي المتوفى عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م بعنوان " قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلي مقام التوحيد ". وهذا الكتاب من أمهات كتب التصوف والتعليم الصوفى التى لا يستغنى عنها في تربية المريد[٤] لذلك كان الشيخ الصوفي أبو إبراهيم بن إسماعيل بن وجماتن الرجراجى – وهو من أهل أدار من بلد رجراجة وبها توفي عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م – يقوم بقراءة هذا الكتاب على مريديه، لأن المكي وضع أسس المنهج الصوفي وشروطه وطريقة تنظيم حياة السالكين والمريدين[٥].

وبقراءة تراجم متصوفة المغرب الأقصي يتضح لنا مدى تأثرهم بآراء المكي، فتفيد هذه التراجم في توضيح مدى حرص هؤلاء على مجاهدة النفس، والمجاهدة عند المكي هي الخلوة والصمت والسهر والجوع[٦]. وقد سلك العديد من صوفية المغرب الأقصي هذا الطريق من المجاهدة[٧].

---

[١] التادلى :مصدر سابق، ص٣٦٢.

[٢] المصدر السابق، ص ٣٧٥ .

[٣] التميمي: مصدر سابق، ص ١٦؛ التادلي: مصدر سابق، صفحات ٣٣٠ ،٣٨٠، ٤٢٨ ، ٤٣٨.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص ٣٥٤؛ انظر مقدمة تحقيق كتاب قوت القلوب للدكتور عبد المنعم الحفنى، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ٥١. عن أبي طالب المكي انظر: ابن خلكان: مصدر سابق، جـ ٤، ص ٣٠٣ .

[٥] انظر كتاب المكي: قوت القلوب، مصدر سابق.

[٦] المكي: قوت القلوب، جـ ٢ ، ص ٣٤٠.

[٧] التادلي: مصدر سابق، تراجم رقم: ١٢، ٢٢، ٢٤، ٣٣، ٥٧، ٥٩، ٧٣، ٨٤، ٨٧، ١١٩، ١٣١، ١٣٢، ٢٤٥.

كما يعد كتاب " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالى المتوفى عام **٥٠٥هـ/ ١١١١م** من أهم المؤلفات التي انتشرت في المغرب الأقصى ولقيت رواجًا لدى جماهيره من المتصوفة والصالحين فمؤلفه من أعظم مفكري الإسلام، وأنه جعل التصوف جزءًا من الدين ومقبولاً لدى علمائه فهو الذى جعل للتصوف مكانة لدى أهل السنة [١].

وقد تعلق صوفية المغرب الأقصى بهذا الكتاب؛ لأنه موافق للكتاب والسنة، لذلك اعتكف الصوفي علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم – من أهل فاس، والمتوفى عام **٥٥٩هـ/١١٦٣م** – على قراءته في بيته مدة عام[٢]، والراجح أن يكون علي بن إسماعيل بن حرزهم قد قرأ هذا الكتاب على يد عمه صالح بن محمد بن حرزهم، الذي رحل إلى المشرق، وانقطع مدة بالشام، فلقي أبا حامد الغزالي[٣]. وتعلق أيضا أبو مدين بهذا الكتاب وكان يقول: " نظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي "[٤]، لذلك لم يكن غريبًا أن يكون

---

[١] الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، **١٩٦٣**، ج٤، ص ١٠؛ جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمه محمد يوسف موسى وآخرون، الطبعة الثانية، القاهرة، **١٩٥٩**، ص **١٧٩**.

Macdonald: Art Al Ghazeli, in Encyclopedia of Islam.

[٢] التادلي: مصدر سابق، ص **١٦٨، ١٦٩**.

[٣] ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، **١٩٧٣**، ج٢، ص **٣٥٨، ٣٥٩**.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص **٢١٤**؛ الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، بيروت، بدون تاريخ، ص **٢٣**؛ المقري: مصدر سابق، ج٧، ص **١٣٧**.

لكتاب الإحياء سوقًا رائجة في أسواق الكتب بالمغرب الأقصى[١]، ويقوم بإقرائه عدد من صوفية هذه البلاد[٢].

على أية حال كان كتاب الإحياء من أهم كتب صوفية المشرق التي أثرت في صوفية المغرب الأقصى، فاستعملوا ما فيه من الأذكار والأدعية والأوراد[٣].

كما ذاع بين صوفية المغرب الأقصى " كتاب الرسالة القشيرية في التصوف"، لأبي القاسم القشيري المتوفى عام ٤٦٥هـ/١٠٧٣م، يؤكد ذلك أن أبا مدين كانت له مجالس للوعظ يعلم فيها، فتخرج على يديه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال[٤]، وكان يتناول في مجالسه "رسالة القشيري في التصوف"[٥]. كما درس هذا الكتاب عدد من الصوفية[٦].

وهو كتاب ألفه الإمام القشيري كما يقول في مقدمة كتابه " إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام في سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م "، وقد ألفه حينما رأى في صوفية عصره أنواعًا من الانحراف عن خط التصوف الصادق، ألفه ليكون مقياسًا صحيحًا لمن أراد أن يسير على الطريق المستقيم[٧].

---

[١] التادلي: مصدر سابق، ص ١٧٩.

[٢] التميمي: مصدر سابق، ص ١١٧، ١٧٢، ١٩٧.

[٣] التادلي: مصدر سابق، ص ٢٧٠؛ العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، الرباط، ١٩٧٣، ج٤، ص ١٢٠.

[٤] ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة ابن شنب، الجزائر، ١٩٠٨، ص ١٠٨؛ المقري: مصدر سابق، ج٧، ص ١٣٧.

[٥] الغبريني: مصدر سابق، ص ٢٦؛ ابن قنفذ: مصدر سابق، ص ١٧.

[٦] التميمي: مصدر سابق، ص ٦٠.

[٧] القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود وآخرين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ج١، ص ١٨؛ عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨، ٣٩.

كما تأثر متصوفة المغرب الأقصى بالتصوف المشرقي عن طريق رحيل عدد منهم للمشرق للاطلاع على مؤلفات التصوف، والالتقاء بصوفيته. فقد رحل عدد من متصوفة المغرب الأقصى إلى مدينة مكة، ومنهم أبو محمد عبد الله بن موسى الجزولي من سجلماسة، وبها توفي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[١]، ومنهم أيضًا أبو عمران موسى الصاريوي الذي جاور بمكة[٢]، واطلعوا على بعض مؤلفات صوفية المشرق أمثال مؤلفات أبي بكر المطوعي في التصوف التي كانت موجودة في مكة التي عاش بها[٣].

وهناك من متصوفة المغرب الأقصى من رحل إلى المشرق، لكن لم تحدد لنا المصادر الوجهة التي اتجهوا إليها واستقروا فيها هناك. منهم الصوفي أبو محمد يرزجان بن محمد الجزولي[٤]، وأبو عبد الله محمد البردعي الأسود السجلماسي[٥]. على أية حال سواء اتجهوا إلى بلاد الحجاز أم الشام أم العراق أم أقاموا في مصر، فقد اطلعوا على مؤلفات صوفية المشرق التي ذاعت شهرتها مثل الرعاية لحقوق الله، وقوت القلوب، والإحياء، وغيرها من المؤلفات.

ولم يقتصر الأمر على سفر صوفية المغرب إلى المشرق بل حدث العكس، إذ أدت العلاقات الوثيقة التي ربطت بين المتصوفة المغاربة وإخوانهم من المشارقة إلى قيام الأخيرين بزيارة متصوفة المغرب الأقصى. فيذكر لنا التادلي أن طائفة من

---

[١] التادلي: مصدر سابق، ص ٢٧٧.
[٢] المصدر السابق، ص ٢٨٨.
[٣] المصدر السابق، ص ٨٣.
[٤] المصدر السابق، ص ٢٦٧.
[٥] المصدر السابق، ص ٢٧٨.

متصوفة المشرق وصلوا إلى بلد أزمور[١] لزيارة أبي عبد الله بن أبي أمغار، وأبي شعيب، وأبي عيسى وزجيج بن ولوون الصنهاجي، فوجدوهم قد ماتوا[٢].

ويتضح التأثير المشرقي أيضا في انتقال طريقة الملامتية في التصوف إلى المغرب الأقصى، وتمسك بعض صوفيته بها، وهي طريقة صوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بمدينة نيسابور[٣]. كما توجد طوائف منهم في خراسان والعراق[٤]، يؤكد ذلك أن الصوفي أبا الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن حرزهم الفاسي المتوفى عام **٥٥٩هـ/١١٦٣م** كان سالكًا في التصوف سبيل أهل الملامتية[٥].ويقوم تصوف هذه الطائفة على أساس أن يخفوا أمرهم على الناس في العبادة وفي الإقبال على الله، ويرون أن الإخلاص يتوافر بذلك في صورة أكمل[٦].

على أية حال فإن التصوف الذي ولد وترعرع في المشرق شأنه شأن جميع الفرق والمذاهب الدينية، قد نفذ إلى المغرب الأقصى، وأثر في دفع حركة التصوف

---

[١] أزمور مدينة قديمة على ساحل المحيط الأطلنطي عند مصب وادي أم الربيع، انظر: مارمول: أفريقيا، ترجمه محمد حجي وآخرون، الرباط، **١٩٨٩**، ج**٢**، ص **٨٧**، **٨٨**.

[٢] التشوف إلى رجال التصوف، ص **١٨٥**.

[٣] عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، **١٩٦٦**، ص **٤١١**.

[٤] السهروردي: عوارف المعارف، القاهرة، **١٩٧٣**، ص **٧٤**.

[٥] التادلي: مصدر سابق، ص **١٦٩**.

[٦] ابن عربي: الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، **١٩٨٧**، ج**١١**، ص **٣٤٠**، **٣٤١**؛ السهروردي: مصدر سابق، ص **٧٢**؛ عبد الحليم محمود: مرجع سابق، ص **٣٢**.

في المجتمع خاصة في عصر الموحدين، ساهم في ذلك أن أرضه كانت أكثر مواتاة من غيرها وكانت ميدانًا خصبًا لانتشاره، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل داخلية.

ثانيًا – العوامل الداخلية:

وتتعدد العوامل الداخلية التي أثرت في نشأة وازدهار التصوف في المغرب الأقصى.

العامل الأول: الطبيعة الدينية للدولة الموحدية. الجدير بالذكر أن المنبع الذي استمد منه الموحدون هو تعاليم الإمام الغزالي التي تدعو إلى المحافظة على تعاليم الإسلام الأساسية، بالإضافة إلى أنه جعل التصوف جزءًا من الدين، ومقبولاً لدى علمائه[١]، كما إن الدعوة الموحدية عمقت الشعور الديني لدى سكان المغرب الأقصى، وأسهمت في ظهور أقطاب التصوف وزيادة أعداد المتصوفة في عصرهم.

العامل الثاني: السيرة الذاتية لحكام الدولة الموحدية التي شجعت على نمو حركة التصوف في المجتمع ودفعها إلى الأمام. فقد كانوا القدوة لرعاياهم في الزهد والتقشف وشدة التدين والعكوف على العبادة، فنجد أن المهدي محمد بن تومرت كان فقيهًا فاضلاً محدثًا عارفًا بأصول الدين والفقه، ورعًا ناسكًا[٢]، وخليفته عبد المؤمن بن علي كان يعظم أمر الدين ويقويه، ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة[٣] وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين، وإليهم

---

[١] جورج قنواتي: التصوف، مقال في كتاب تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١١، القسم الثاني، الكويت، ١٩٧٨، ص ٢٤٦.

[٢] النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٨٣، ج٢٤، ص ٢٧٧.

[٣] المصدر السابق والجزء، ص ٣١٨.

المرجع والكلام معهم[١]. كما كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حافظًا للقرآن، كما كان يحفظ أحد الصحيحين إما البخاري أو مسلم[٢]، واشتهر بزهده وورعه وعدله[٣]. ولم تختلف سيرة يعقوب المنصور عن أسلافه بل تفوق عليهم في تدينه، فقد أظهر الزهد والتقشف وخشونة المأكل والملبس حتى انتشر في أيامه الصالحون وعظمت مكانتهم، وكان يطلبهم ويستدعيهم من أنحاء دولته ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل منهم من يقبل صلته بالصلات الجزيلة[٤].

العامل الثالث: انتشار الربط[٥] في كل أنحاء المغرب الأقصى؛ مما كان له أبلغ الأثر في نمو التصوف. فقد وفرت الربط مكانًا للعكوف على العبادة والمجاهدات، ومكانًا للتعليم الصوفي، الذي يسعى إليه المريدون السالكون لهذا الطريق. وكانت الشواطئ تعج بالرباطات[٦]. وكان ثمة رباطات على شاطئ المغرب الأقصى بعضها في نكور[٧] وأرزله. وقد قامت برد غارات

---

[١] المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، حققه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٠٠، ٢٠١؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣١٨.

[٢] المراكشي: مصدر سابق، ص ٢٣٧.

[٣] ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٣٣، ٢٣٤؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣٢٧.

[٤] المراكشي: مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣٢٨.

[٥] عن موقع الأربطة في المغرب الأقصى، انظر الخرائط التى الحقها الأستاذ أحمد التوفيق بتحقيقه لكتاب التشوف إلي رجال التصوف.

[٦] دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط.

Bel: Op.cit, p.16.

[٧] البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر، ١٨٥٧، ص ٩١.

قراصنة الشمال، وبعضها في سلا[١] لتيسير أسباب الغارة على خوارج برغواطة[٢]. كما يوجد رباط على ساحل البحر في وادي ماسين وله مرسى مأمونة، وعليه حصنان وهو رباط حسن مقصود يتبرك به[٣]. كما كان موضع مدينة أصيلة رباطًا[٤].

لكن مع رسوخ الإسلام في بلاد المغرب والقضاء على البدع والمذاهب المنحرفة واختفاء التهديدات الخارجية في ذلك الحين، اختفت الوظيفة الحربية للرباط، فلم تكن هناك حاجة للرباط كضرورة عسكرية. حدث هذا التطور في أواخر عهد المرابطين، وأصبحت للأربطة وظيفة دينية فقط، وظلت عامرة يقصدها الزهاد والمتصوفة، وأصبحت مقامات للعباد المنقطعين للعبادة والزهد والمجاهدات الصوفية[٥].

هكذا شد متصوفة المغرب الأقصى الرحال إلى الأربطة سواء أكانت في المناطق الساحلية أم المناطق الداخلية. وكما أوضحنا فإن الاربطة الساحلية أصبحت ذات مهمة دينية وليست حربية في الفترة الزمنية للدراسة. ومن الأربطة الساحلية التي أقام بها الزهاد والمتصوفة رباط مدينة سلا، وكان يقع على ساحل المحيط الأطلنطي[٦]. وفي مدينة أزمور هناك رباط تيطنفطر[٧] وهذا الرباط من

---

[١] سلا مدينة قديمة في غربها المحيط الأطلنطي، وفي جنوبها النهر وهي متوسطة بين بلاد المغرب الأقصى، كثيرة الرخاء، انظر أبي الفداء: تقويم البلدان، باريس، ١٨٢٠، ص ١٣٠، ١٣١.

[٢] البكري: مصدر سابق، ص ٩٠؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط.

[٣] البكري: مصدر سابق، ص ٨٠.

[٤] المصدر السابق، ص ١١٢.

[5] Bel: Op.cit, p.107.

[٦] التادلي: مصدر سابق، ص ١٥٧.

[٧] المصدر السابق، ص ٢٠٩.

أقدم الرباطات بالمغرب الأقصى ووجوده سابق على العهد المرابطي. وهو معروف الموقع إلى اليوم، إذ يقع على بعد بضعة أميال جنوب مدينة الجديدة على شاطئ المحيط[١]، ورباط آخر يسمى رباط أييسين وهو يعني رباط الخيل[٢]. وفي مدينة أسفي[٣] رباطان، الأول يسمى رباط تامرنوت وهو يقع قرب البحر بأسفي[٤] والرباط الثاني يسمى باسم المدينة رباط أسفي[٥]. كما يوجد رباط ساحلي آخر يقع بالقرب من ساحل أنفا[٦] يسمى رباط تامنغاطت[٧].

أما الأربطة التي أقيمت في داخل البلاد بعيدًا عن السواحل فهي كثيرة، ومن أهمها رباط شاكر الذى يقع على ضفة نهر تانسيفت ومحله اليوم قرية تسمى سيدي شيكرة، وكان هذا الرباط مقصد للمريدين في طلب شيوخ التصوف والصالحين[٨].

---

[١] انظر هامش رقم **٤٦٢** لمحقق كتاب التشوف، ص **٢٠٩**.

[٢] التادلي: مصدر سابق، ص **٤١٤**.

[٣] أسفي مرسى في أقصى المغرب، وهو آخر مرسى تبلغه المراكب من عند الأندلس إلى ناحية الجنوب، ومن مرسى أسفي إلى مرسى ماست مائة وخمسون ميلاً، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، **١٩٨٠**، ص **٥٧**.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص **٤٣٣**.

[٥] المصدر السابق، ص **٤٣٩**.

[٦] ساحل أنفا بقرب وادي أم الربيع كثير الزرع والمواشي والإبل والبقر والغنم، الحميري: مصدر سابق، ص **٣٥**.

[٧] التادلي: مصدر سابق، ص **١٦٦**.

[٨] المصدر السابق، ص **١٠٣**، **١٧٢**.

أما مدينة فاس فقد أقيم فيها رباطان، الأول يقع بالقرب من فاس، انقطع فيه الصوفية للعبادة[١]، والرباط الآخر يسمى رباط زرهون[٢] خارج باب أجيسة[٣].

كما وجدت عدة أربطة في مدينة مراكش، منها رباط تاسماطت[٤]، ورباط أوجدام في بلد ركونة من عمالة مراكش[٥]، وأخيرًا رباط الغار الذي يقع خارج سور مراكش خارج باب أغمات[٦]. وفي منطقة هسكورة[٧] هناك رباطان هما رباط حكم[٨] ورباط ملولاسن[٩]. وفي منطقة دكالة[١٠] يوجد رباط تانوتن ظهير ويعني

---

[١] المصدر السابق، صفحات **٥١، ٣٦٥، ٣٩٤، ٤٠٢**.

[٢] المصدر السابق، ص **٣٦٨**.

[٣] التميمي: مصدر سابق، ص **١٦٨**.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص **١٦٤، ٢٣٥**.

[٥] المصدر السابق، ص **٢٢٧**؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج**٣**، ص **١٠١**.

[٦] التادلي: مصدر سابق، ص **٣١٢، ٣٤٣**.

[٧] إقليم هسكورة يمتد شمالاً على حدود دكالة، وفي جنوبه بعض فروع الأطلس الكبير، ويمتد غربًا إلى نهر أنماي، وشرقًا إلى وادي العبيد الذي يفصل الإقليم عن إقليم تادلا ووادي أم الربيع ويقع على بعد عشرين فرسخًا من جهة الغرب من مدينة مراكش، انظر: مارمول: مصدر سابق، ج**٢**، ص **١٠٦**.

[٨] التادلي: مصدر سابق، ص **١٥٢**.

[٩] المصدر السابق، ص **٣٨٨**.

[١٠] منطقة دكالة تمتد من الشمال إلى الجنوب أربعة وعشرين فرسخًا، ومن الشرق إلى الغرب ثلاثون فرسخًا يفصل نهر تانسيفت الإقليم عن بلاد حاحة، ونهر أم الربيع يفصلها عن تامسنا، انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، ج**١**، ص **٢٤١**؛ مارمول: مصدر سابق، ج**٢**، ص **٧٠**؛ الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص **١٦١**.

بئر الحمام[١]. وفي مدينة نفيس[٢] هناك رباط عقبة على وادي نفيس[٣]. أما سجلماسة[٤] ففيها رباط أيندور الذي يقع خارج مدينة سجلماسة[٥].

وقد أدى انتشار الأربطة إلى إقبال أعداد كبيرة من أفراد المجتمع على الدخول في سلك التصوف خصوصًا مع وجود الأربطة التي هيأت لهم مكانًا للانقطاع عن المجتمع ومراجعة النفس ومحاسبتها، وكما يقول أبو مدين: " من علامات صدق المريد فراره عن الخلق"[٦].

العامل الرابع: قيام بعض شيوخ التصوف المغربي بوضع مؤلفات في التصوف حتى تكون هذه المؤلفات في متناول إخوانهم في الطريق، وتوضح لهم المبادئ الجوهرية لطريق التصوف، مثلما وضع صوفية المشرق العديد من المؤلفات.

ويعد كتاب "محاسن المجالس" لأبي العباس أحمد بن محمد بن عطاء الله الصنهاجي، المعروف بابن العريف والمتوفى سنة **٥٣٦**هـ/**١١٤١**م من أهم

---

(١) التادلي: مصدر سابق، ص **٢٢٥**؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج**٣**، ص **٢٥٠**.

(٢) نفيس مدينة قديمة أزلية تلي السوس الأقصى، ولها نهر ينزل من جبل درن. البكري: مصدر سابق، ص **١٦٠**.

(٣) التادلي: مصدر سابق، ص **٣١٥**، **٤٠١**.

(٤) سجلماسة مدينة بنيت سنة **١٤٠**هـ/**٧٥٧**م وهي مدينة حولها أرياض كثيرة وهي على نهرين، كثيرة النخل والأعناب، وهي أول الصحراء، ومنها يدخل إلى بلاد السودان إلى غانة مسيرة شهرين. البكري: مصدر سابق، ص **١٤٨**، **١٤٩**.

(٥) التادلي: مصدر سابق، ص **٤١٢**.

(٦) ابن عربي: مصدر سابق، ج**٤**، ص **١٠٥**.

المؤلفات الصوفية[١].لقد وضع ابن العريف في كتابه منهجًا صوفيًا، بأن وضع الأسس والقواعد التي تنظم حياة السالكين والمريدين الذين ينتسبون إلى التصوف ويحدد لهم في كتابه ما يكلفون به من واجبات وأعمال تعينهم على مجاهدة أهوائهم وتهذيب نفوسهم. ويهتم المنهج الصوفي عند ابن العريف بالجانب العملي من التصوف[٢].

كما يعد كتاب " أنس الوحيد ونزهة المريد " للعارف بالله أبي مدين المتوفى عام **٥٩٤**هـ/**١١٩٧**م من أهم كتب التصوف المغربي، وهذا الكتاب موجه إلى المريد السالك لطريق التصوف، ينبهه إلى قواعد السلوك التي ينبغي مراعاتها. والكتاب عبارة عن جمل ذات ألفاظ قليلة تتضمن المعاني الكثيرة[٣].

هكذا انتشر التصوف الوافد من المشرق في بلاد المغرب الأقصى، وبدأ المتصوفة المغاربة يلعبون دورًا في حياة المجتمع، وهو ما سنفصله في صفحات البحث التالية.

---

[١] ابن عربي: مصدر سابق، ج**٢**، ص **٩٢**؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، نشر محمد يوسف نجم، فيسبادن، **١٩٧١**، ج٨، ص **١٣٣**؛ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول، **١٩٤٣**، ج**٢**، ص **١٦٠٩**.

[٢] ابن العريف: محاسن المجالس، نشر أسين بلاسيوس، باريس، **١٩٣٣**، ص **٧**.

[٣] انظر أحمد بن عبد القادر الذي قام بشرح حكم أبي مدين في شرحه المسمى: البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد، القاهرة، **١٢٩٧**هـ.

أولا- دور المتصوفة في الحياة السياسية:

١- دور متصوفة المغرب الأقصى في معارضة السياسات الجائرة:

تذكر المصادر المناقبية بعض الوقفات الحاسمة لمتصوفة المغرب الأقصى ضد السلاطين وعمالهم، وذلك لدفع ظلمهم وقراراتهم المتعسفة. فلم يخشوا سطوتهم، وأعلنوا ذلك صراحة وعلى الملأ فلا خوف إلا من الله سبحانه وتعالى. فالصوفي أبو مهدي وين السلامة بن جلداسن الدكالي المتوفى عام **٥٦٠هـ/ ١١٦٤م** كان لا يخشى السلطان – يقصد الخليفة عبد المؤمن بن علي المعلصر لهذا الصوفي _ إذا تحدث، ولا يخشى أن يصل كلامه إليه، فكان يجهر بمعارضة السلطان[١].

كما تصدى الصوفي أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الهواري المتوفى عام **٥٨١هـ/١١٨١م**، لجور عامل أغمات وريكة الذي كتب أحباس الجامع في زمامه[٢].

كما هرع جماعة من أهل أدار من بلد رجراجة إلى أبي إبراهيم إسماعيل بن وجماتن المتوفى عام **٥٩٥هـ/١١٩٨م**، فشكوا له جور العامل وانتهاكه حرمة الله، فغضب أشد الغضب ولم يسكت على هذا الجور، وانتهز فرصة صلاة الجمعة في الجامع، فلما انتهت الصلاة قام بعظة الحاضرين والعامل بينهم، فتكلم في حقه بكلامٍ خاف منه الناس على أنفسهم، فخرجوا من المسجد كلهم، وخرج العامل أيضًا، وانتظر خارجه حتى خرج أبو إبراهيم فقبض عليه[٣]. ولم يخش هذا

---

[١] التادلي: مصدر سابق، ص **٢٦٣**.

[٢] التادلى :مصدر سابق، ص **٢٧٠**؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج**٤**، ص **١٢٠**.

[٣] التادلي: مصدر سابق، ص **٣٥٤**.

الصوفي العامل، وأغلظ له في القول وهو حاضر معرضًا نفسه للعقاب والحبس، حتى عرف العامل مكانته فتغافل عن أمره ولم يتعرض له بعد ذلك بشيء[١].

وهناك حلات أخرى عارض فيها رجال التصوف سياسة العمال الجائرين حين شكا الناس إليهم هذه السياسة[٢].

وبالإضافة إلى معارضة المتصوفة السياسات الجائرة للسلاطين أو لعمالهم فقد استغلوا مكانتهم داخل مجتمع المغرب الأقصى وأسدوا إلى الناس الكثير من الخدمات حين وقفوا في وجه استبداد السلاطين وعمالهم، وتشفعوا لرعاياهم واستجيبت شفاعتهم.

٢- دور المتصوفة في الشفاعة للرعية عند الحكام:

قام المتصوفة في هذا المجال بدورٍ ملحوظ، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها تشفع الصوفي أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الأزموري المتوفى عام **٥٦١هـ/ ١١٦٥م**، في نساء علي بن يوسف المرابطي، ونساء أولاده عند الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (**٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٣٠-١١٦٣م**)، وقبل عبد المؤمن شفاعته، وأمر بإطلاق سراحهم، لارتفاع مكانته عند الخليفة الموحدي[٣]. كما تشفع هذا الصوفي أيضًا في جماعة من أهل أزمور، أراد الوالي قتلهم، فعرف الوالي مكانته فخشيه وقبل شفاعته. ولذلك كان أهل أزمور يهرعون إليه لرد أي ابتلاء من قبل الوالي[٤].

---

[١] المصدر السابق، ص **٣٥٥، ٣٥٦**.

[٢] المصدر السابق، ص **٤٢١**.

[٣] الصومعي: المعزي في أخبار ومناقب الشيخ أبى يعزي، مخطوطة بدار الكتب المصرية، الرمز تاريخ تيمور **١٢٤٩**، ميكروفيلم **٢٧٧٠٣٢**، ورقة **١٠، ١١**.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص **١٨٨**.

كما تشفع أبو الأمان بن مشو الرفروفي – من بلد تادلا والمتوفى عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م . لقوم أخذ منهم إسحاق بن يحيى من عمال الخليفة الناصر الموحدي (٥٩٥-٦١١هـ/١١٩٩-١٢١٤م) دوابهم، حتى يدفعوا له مبلغ مائتي دينار، فشكوا إلى أبي الأمان، فكتب كتابًا بالشفاعة لهم، فقام العامل برد دوابهم[١].

على أية حال لقد استجاب الحكام لكثير من الشفاعات التي قام بها المتصوفة بفضل المكانة الاجتماعية الكبيرة لهم، والتي تمثلت في التفاف الرعية حولهم، وتقديرهم إياهم . ولذلك كان غريبًا أن يرفض هؤلاء المتصوفة المناصب الدينية التي عرضت عليهم.

٣- العزوف عن المشاركة في المناصب الدينية للدولة:

جدير بالذكر أن متصوفة المغرب الأقصى في الفترة الزمنية للدراسة، قد عزفوا عن المشاركة في المناصب الدينية، حين رفضوا تولي منصب القضاء، ومنصب الحسبة.

وإذا كان الصلاح وشدة الورع والخوف من الله تعالى أهم سمات من يتولى منصب القضاء، فإن هذه السمات كانت تسمح لمعظم متصوفة المغرب الأقصى بأن يرشحوا لتولي هذا المنصب. وكانت سلطة تعيين قضاة المدن في أيدى سلطة قاضي القضاة ومقره مراكش، يوضح ذلك أن قاضي القضاة أبا يوسف حجاج بن يوسف التجيبي المتوفى عام ٥٧٢هـ /١١٧٦م قد رشح الصوفي أبا محمد عبد العزيز بن محمد الباغاتي لمنصب قضاء مدينة أغمات[٢]. واتباعًا لسياسة الزهد في الدنيا ومناصبها، وخوفًا من تبعات المنصب أمام الله عز وجل، ذهب هذا الصوفي

---

[١] المصدر السابق، ص ٢٤٢.

[٢] المصدر السابق، ص ٢٠٥؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٨، ص ٤٠١.

إلى مراكش، وطلب من قاضي القضاة أن يعفيه من ولاية القضاء. لكن قاضي القضاة تمسك به لفضله وورعه، لكنه صمم على موقفه في رفض تولي خطة القضاء، وقال له : " والله لو نشرت بالمنشار من قرني إلى قدمي ما قبلت هذه الولاية ". إزاء هذا الموقف قام قاضي القضاه بإعفائه من هذه الولاية[١].

ومن المناصب الدينية التي عزف المتصوفة أيضًا عن توليها وظيفة الحسبة، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين. ولصاحبها النظر والحكم في آنٍ واحد، وهي بذلك خادمة لمنصب القضاء[٢]، ومندرجة تحت مسئوليات القاضي الذي يقوم بتعيين المحتسب. فالقاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف بعث إلى أبي عبد الملك مروان اللمتوني العابد المتوفى عام **٥٧١هـ/١١٧٥م**، أن يصل إليه من مدينة فاس ليقدمه على وظيفة الحسبة بمدينة مراكش[٣] لكنه رفض أن يتولى خطة الحسبة لرغبته في سلوك طريق التصوف[٤].

وكانت هناك محاولة لإكراه الصوفي أبي يعقوب يوسف بن علي المؤذن المتوفى عام **٥٥٧هـ/١١٦١م**، على ولاية الحسبة في مدينة داي من بلاد تادلا، لما شهر به من صلاح وورع وكثرة البكاء والاجتهاد والعبادة، لكنه رفض هذه الولاية وأعفي منها[٥].

---

[١] التادلي: مصدر سابق، ص **٢٠٥**؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٨، ص **٤٠١**.

[٢] ابن خلدون: المقدمة، بيروت، **١٩٨٦**، ص **٢٢٦، ٢٢٧**.

[٣] التادلي: مصدر سابق، ص **٢٣٨**؛ ابن القاضي: مصدر سابق، ج**١**، ص **٣٣٤**؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٧، ص **٢٤٨، ٢٤٩**.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص **٢٣٨**.

[٥] المصدر السابق، ص **١٦٨**.

لقد كان موقف هؤلاء المتصوفة بعدم المشاركة في شغل المناصب الدينية موقفًا سلبيًا، فلو تولوا هذه المناصب لأسدوا للرعية الكثير من الخدمات لورعهم وتقواهم، لكنهم آثروا البعد ورفضوا تولي هذه المناصب خوفًا من الوقوع في النفاق، وفقدان القدرة على قول الحق ومعارضة الباطل. كما أنهم نظروا إلى أن هذه المناصب يتكالب عليها طلاب الدنيا، والأجدر بأصحاب الذكر والطريق الابتعاد عنها. كما إن رفض تولي هذه المناصب يعد حرصًا على عدم إقامة أي علاقة مع السلطة بإيثار الابتعاد عنها. وإذا كانوا قد رفضوا المشاركة في شئون الحكم، فقد شاركوا في حملات الجهاد ضد الأسبان.

٤- المتصوفة والمشاركة في الجهاد ضد الأسبان:

شارك متصوفة المغرب الأقصى في أهم أحداث عصرهم العسكرية حين عبروا للأندلس للجهاد ضد الأسبان. وقد أبرزت كتب المناقب مشاركة بعض المتصوفة في معركتين من أهم معارك الجهاد في بلاد الأندلس، وهما معركتا الأرك والعقاب.

أ- معركة الأرك:

وتعد معركة الأرك Alarc[1] التي دارت رحاها في التاسع من شعبان سنة **٥٩١**هـ الثامن من يوليه **١١٩٤**م، من المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام في الأندلس، وهي معركة شارك فيها متصوفة المغرب الأقصى مع المتطوعين، في عهد يعقوب المنصور (**٥٨٠-٥٩٥**هـ/ **١١٨٤-١١٩٩**م)، الذي أملت عليه الأحداث

[1] الأرك هو اسم سهل واسع وراء جبل الشارات، وكانت هذه الجبال قد غدت على عهد الموحدين حاجزًا بين الأندلس المسلمة ودولة قشتالة النصرانية. وبجوار سهل الأرك قامت قلعة رباح الشهيرة، انظر: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه د. سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، **١٩٧٩**، هامش رقم **٥**، ص **١٥٩**.

العبور إلى الأندلس للمرة الثانية[١] بعد توالي كتب مسلمي الأندلس، وقادة الثغور فيه باشتداد الضغط النصراني وثقل وطأته بتفاقم غاراته. فقد بعث ألفونسو الثامن ملك قشتالة بجيوشه في حملة تخريبية إلى أراضي الأندلس[٢].

وأقبلت الحشود من كل صوب وكانت رغبة المجاهدين في العبور إلى الأندلس كبيرة وخصوصًا المتطوعة من فقهاء المغرب وصلحائه من الصوفية[٣] الذين أسهموا في هذه المعركة الحاسمة التي ثبتت حدود الإسلام في الأندلس. والتي عقد فيها يعقوب المنصور للحاج الصالح أبي خرز يخلف الأوربي على المتطوعة، وكانت رايتهم خضراء[٤]. ويمدنا التادلي بترجمة لأحد شيوخ التصوف الذين شاركوا في هذه المعركة، وهو أبو محمد عبد الواحد بن تومرت الهسكوري

---

[١] عبر يعقوب المنصور إلى الأندلس في غزوته الأولى سنة **٥٨٥**هـ/ **١١٨٩**م بعد سقوط شلب في يد بيدوبين هنريكنر ملك البرتغال، وكانت من أكبر موانئ غرب الأندلس. وخرج يعقوب المنصور وحقق الانتصارات واستعاد شلب وعددًا من الحصون سنة **٥٨٧**هـ/ **١١٩١**م ثم شغلته شواغل أخرى وألم به مرض فعقد مع النصارى صلحًا لمدة خمس سنوات . انظر: المراكشي: مصدر سابق، ص **٢٨٠**؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، **١٩٨٣**، ج٦، ص **٥١١**، **٥١٢**؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، الدار البيضاء، **١٩٨٥**، ص **٢٠٣** إلى **٢٠٦**؛ محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني عصر الموحدين، الطبعة الثانية، القاهرة، **١٩٩٠**، ص **١٩٧**.

[٢] المراكشي: مصدر سابق، ص **٢٨٢**؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تعليق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط، **١٩٣٦**، ص **٢٢٠**؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص **٣٣٣**، **٣٣٤**.

[٣] ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص **٢٢٢**.

[٤] المصدر السابق، ص **٢٢٥**، **٢٢٦**.

الأسود، الذي توجه مع جيوش المسلمين إلى جزيرة الأندلس، وشارك في معركة الأرك حتى استشهد في سبيل الله[١]. وحقق المسلمون النصر في تلك المعركة.

وإذا كان ابن أبي زرع قد أشار إلى أن أحد المتصوفة قد تولى قيادة جيش المتطوعة، والتادلي قد أمدنا بترجمة لأحد شيوخ التصوف الذي شارك في غزوة الأرك، فإننا نعتقد أن هناك أعدادًا كبيرة من الصوفية قد خرجوا للجهاد في الأندلس. يؤيد ذلك قول المراكشي أن أمير المؤمنين أبا يعقوب المنصور قد اعتمد في جيشه على أعداد كبيرة من المتطوعين من الصالحين[٢].وكانت معركة الأرك بدون شك آخر معركة عظمى حقق فيها المسلمون انتصارًا حاسمًا على الأسبان.

ب- معركة العقاب:

ومن معارك الجهاد الأخرى التي شارك فيها بعض متصوفة المغرب الأقصى، معركة العقاب[٣] التي وقعت في الخامس عشر من صفر سنة **٦٠٩**هـ/ السابع عشر من يوليه سنة **١٢١٢**م، في خلافة أبي محمد عبد الله الناصر (**٥٩٥-٦١٠**هـ/ **١١٩٩-١٢١٣**م).

وترجع أسباب تلك المعركة إلى استئناف الأسبان لغزواتهم المخربة في أراضي الأندلس، منتهزين انشغال الخليفة الموحدي الناصر منذ ارتقائه العرش بحوادث إفريقية، واستيلاء بني غانية على قواعدها وثغورها. والعمل على تحريرها

---

[١] التشوف إلى رجال التصوف، ص **٣٥٩**.

[٢] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص **٢٨٢**.

[٣] العقاب حصن يقع فوق قمة أحد جبال الشارات التي تفصل بين الأندلس وأسبانيا النصرانية، وهو يحتل أعلى قمة في الجبل. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني: عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، **١٩٩٠**، ص **٣٠٢**.

عن سير الحوادث في الأندلس[١].ولما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين التي وقعها يعقوب المنصور، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن يتأهب لغزو الأندلس للانتقام لهزيمته في معركة الأرك. فخرج من قشتاله في قواته عام ٦٠٥هـ/١٢٠٩م صوب جيان وخرب واستولى على عدة حصون، وأصاب المسلمين من جراء ذلك محن وخسائر فادحة، وخرج في العام التالي سنة ٦٠٦هـ/١٢١٠م ووصل في عبثه إلى ولاية مرسية، ثم عاد إلى طليطلة مثقلاً بالغنائم[٢].

وأمام عجز القوات الموحدية الصغيرة في صد تلك الجيوش الأسبانية الغازية كان لابد أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه في جيوشه الجرارة إلى شبه الجزيرة ليقود بنفسه الجيوش الإسلامية، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفار الناس للجهاد، فاستجابت سائر الجهات والقبائل للدعوة[٣].

وانضم متصوفة المغرب الأقصى إلى الجيش الذي عبر إلى الأندلس، فقد حفظت لنا كتب المناقب ترجمة لشيخ من صوفية المغرب الأقصى انضم إلى الجيش الموحدي، وهو أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري، وهو من شيوخ التصوف من أهل سبتة، قدم مراكش وصحب أبا يعزي وأبا مدين وأبا غالب، ورحل إلى المشرق، ولقي العلماء والفضلاء، واستشهد في وقعة العقاب عام

---

[١] المراكشي: مصدر سابق، ص ٣١٧، ٣١٨؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ص ٢٣٨، ٢٤٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٥١٧-٥٢٠.

[٢] المراكشي: مصدر سابق، ص٣١٨؛ محمد عبد الله عنان: مرجع سابق، ص ٢٨٤.

[٣] المراكشي: مصدر سابق، ص ٣٢١.

٦٠٩هـ/ ١٢١٢م[١]. وهذا يعني أن هناك الكثير من متصوفة المغرب الأقصى قد شاركوا في وقعة العقاب مع المتطوعين للجهاد في الأندلس.

هكذا شارك متصوفة المغرب الأقصى في أحداث عصرهم السياسية، كما شاركوا بإيجابية في أحداثه العسكرية. ويرجع ذلك إلى ارتفاع مكانتهم الاجتماعية داخل مجتمعهم.

ثانيا: الدور الاجتماعي لمتصوفة المغرب الأقصى:

تؤكد كتب المناقب أن المتصوفة في بلاد المغرب الأقصى لم ينعزلوا عن مجتمعهم، وتدل مواقفهم على أنهم كانوا إيجابيين شاركوا أفراد مجتمعهم همومهم وآلامهم، وسعوا جاهدين لكشف الضوائق عنهم. فقد تمسكوا بتعاليم الكتاب والسنة التي تحث على التكافل والتعاون عن طريق البذل والإنفاق لإسعاف المنكوبين. وكان للمتصوفة دور في الرعاية الاجتماعية وخصوصًا في الأزمات الاقتصادية التي كانت تصيب المجتمع وتحدث مجاعات عانى منها الفقراء والمساكين.

١ – دور المتصوفة في المجاعات:

أسهم المتصوفة في التخفيف عن أفراد مجتمعهم في المجاعات التي تعرضوا لها. فالمتصوف أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الرحمن التادلي المتوفى عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م قام بالتخفيف عن كاهل الناس في المجاعة التي حدثت في مدينة مراكش حين جمع الفقراء الذين بجامع علي بن يوسف، وأخرج لهم سمنًا وقمحًا كان عنده وفرقه عليهم حتى لم يبق له منه شيء[٢]. كما كان أبو زكريا يملك في

---

[١] التادلي: مصدر سابق، ص ٤١٥؛ ابن القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٨؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٣، ص ٧١، ٧٢.

[٢] التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

مدينة فاس قمحًا في غرفتين، قام بتوزيعه على المساكين عم ٥٧١هـ/١١٧٥م، وانصرم العام ولم يبق من ماله شيء[١].

وسار على سياسة البذل والإنفاق أيضًا الصوفي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي – نزيل مدينة فاس، وبها توفي عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م – فقد دخل مدينة فاس ومعه حوالي أربعين ألفًا من الدنانير ولم يزل ينفقها في سبيل الخير حتى لم يبق له غير دار ثم باعها. وكان يملك ألف صحفة من قمح، فأصابت أهل فاس مجاعة، فباع جميع ذلك بوثائق وآخرهم في السداد إلى أجل، فلما حل الأجل استدعاهم، وحل الوثائق في الماء، وقال لهم:" أنتم في حل وما بعت الأ من لله ولكن احتلت عليكم بالبيع إلى أجل "[٢].

على أية حال لم يقتصر دور المتصوفة في مساعدة أفراد مجتمعهم في الأزمات الاقتصادية فقط بل كان مستمرًا في مجال الحث على الصدقات والإحسان العام إلى الفقراء.

٢ – الحث على الصدقات والإحسان العام:

إن التكافل والرعاية الاجتماعية لدى الصوفية سلوك للتقرب إلى الله والعمل على مرضاته. ودعمًا لهذا الدور فقد قاموا بالحث على الصدقة والإحسان العام إلى الفقراء، فالصوفي أبو يعزى يلنور المتوفى عام ٥٧٢ هـ/١١٧٦م قدم أضحية عيد الأضحى لمن جاء يسأله[٣]. والصوفي أبو محمد يسكر بن موسى فقيه مدينة فاس المتوفى عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م قال :" في هذا المضمار طلبنا التوفيق

---

[١] التميمي: مصدر سابق، ص ٢١٠، ٢١١؛ التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤٦.

[٢] التادلي: مصدر سابق، ص ٣٣٢؛ السلاوي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٩٠؛ الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، فاس، ١٨٩٩، ج٣، ص ٢٦٧.

[٣] أبو العباس العزفي: دعامة اليقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)، ص ٦٢.

فوجدناه "إطعام الطعام "[١]. وقام الصوفي أبو زكريا يحيى بن إبراهيم بن عبد الله التادلي المتوفى عام ٥٨٢هـ/١١٨٥م بإنفاق ماله كله في سبيل الخير حتى لم يبق له شيء[٢].

كما كان أبو العباس السبتي عطوفًا محسنًا إلى المساكين واليتامى والأرامل، فكان يجلس حيث أمكنه الجلوس في الأسواق والطرقات ويحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضيلتها من الآيات والآثار؛ فتنهال عليه الصدقات فيوزعها على المساكين وينصرف[٣]. ويقوم مذهب أبي العباس السبتي في التصوف على الحث على الصدقة، وكان يرد سائر أصول الشرع إليها[٤].

أما الصوفي أبو محمد صالح بن واندلوس، وأصله من تارودانت واستوطن مراكش وأغمات وريكة واستقر أخيرًا بالسوس الأقصى وتوفي بعد عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م، فكان لا يمسك شيئًا مما يقع في يده من أموال، ولما وصل إلى بلدة تارودانت تصدق على المساكين بجميع ما ورثه عن أبيه من الأملاك ولم يتمسك بشيء. وفي فترة إقامته بمراكش كان الفقراء لا يفارقون منزله، فتارة يخرج إليهم بصدقات، وتارة يرمي إليهم الدراهم من بين الأبواب[٥].

والمتصوف أبو العباس أحمد بن عبد العزيز السلاجي – وهو من أهل الجانب الشرقي من مراكش – توفي عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م – كان لا يبيت وعنده

---

[١] ابن قنفذ: مصدر سابق، ص ٢٣؛ ابن القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص ٥٦٢.

[٢] التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤٨.

[٣] أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الأولى، طرابلس، ١٩٨٩، ص ٧٢؛ السلاوي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٣٥.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص ٤٥٣.

[٥] المصدر السابق، ص ٣٤٧-٣٤٩؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٧، ص ٣٤٢.

مال معلوم يركن إليه فكان يسعى حتى يتصدق به، وكان عندما يمشي يطرح عليه أثرياء المنطقة أنواع الثياب، فيطرحها هو على الفقراء ويبقى بمرقعة[١].

كما باع الصوفي أبو عمران موسى الصاريوني أرضًا كانت له وتصدق بثمنها على المساكين[٢]. والصوفي أبو علي حسن بن علي المطغري المؤذن الذي نزل في الجانب الشرقي من مراكش، كان بعد أن يأخذ أجرته نظير عمله يبقي منها شيئًا لقوته، ويتصدق بالباقي على المساكين[٣].

وتتعدد وجوه البر والإنفاق في سبيل الله لمتصوفة المغرب الأقصى، فمنهم الصوفي أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي المتوفى عام ٥٨١هـ/١١٨٦م الذي كان يتفقد مكاتب الصبيان ليعطف وينفق على أبناء الأيتام والفقراء[٤].

والصوفي أبو عبد الله التاودي المعلم الذي كان من أهل فاس، وتوفي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م، كان يملك مكتبًا لتعليم الصبيان، فكان لا يأخذ الأجر من أولاد الفقراء، ويرد عليهم ما يأخذه من أجر من أولاد الأغنياء، وبلغ في عطفه وإحسانه عليهم أنه كان يغسل أثواب الصبيان ويخيطها إذا احتاجت إلى ذلك، ولا يأخذ على ذلك أجرًا[٥]. وهناك من حبس فدانًا لدفن موتى المسلمين[٦]. بل هناك من تصدق على فقراء أهل الذمة، فقد تصدق الصوفي عبد الجليل بن ويحلان المتوفى عام ٥٤١هـ/١١٤٦م بجبة ثمنها عشرة دنانير لنصراني مر به[٧].

---

[١] التادلي: مصدر سابق، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

[٢] المصدر السابق، ص ٢٨٨.

[٣] العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٣، ص ١٣٤.

[٤] التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤١.

[٥] المصدر السابق، ص ٢٧٢؛ الكتاني: مصدر سابق، ج٣، ص ١١٠؛ السلاوي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٨٨.

[٦] التادلي: مصدر سابق، ص ٣٦٩.

[٧] المصدر السابق، ص ١٥٠.

أمثلة كثيرة تمدنا بها المصادر المناقبية توضح جهود هؤلاء المتصوفة في أعمال البر والخير تأكيدًا لمبدأ التكافل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية الذي يأمرنا به الإسلام.

ثالثاً: المتصوفة والعمل:

للعمل في الإسلام مكانة مرموقة، فهو قيمة أساسية من قيم المجتمع المسلم، ويمنح اليد العاملة توقيرًا وفضلاً كبيرًا. لقد فهم صوفية المغرب الأقصى – كما أوردت كتب المناقب – المعاني التي حثت على العمل، والتي جاءت في الكتاب والسنة النبوية، كما أنهم فهموا صلة الصوفي بمجتمعه. فهم لم يقروا أن يعيش الصوفي عالة على غيره؛ لذلك قدروا قيمة العمل فكانوا يعملوا ويكسبوا رزقهم، وفي الوقت ذاته لا يصرفهم ذلك عن طاعة الله وعبادته. فالكسب عندهم فضيلة تحرر الإنسان من ذل المسألة، ويعني الكسب أن يكون الصوفي مشتغلاً بشتى الحرف، والتجارات، وغير ذلك مما أباحته الشريعة على تيقظ، أو تثبت بعيدًا عن الشبهات .وقد تمسكوا بهذه المعاني وعاشوا من كد أيديهم[1].وأمدتنا المصادر بالأعمال التي مارسها صوفية المغرب الأقصى، وقد تعددت هذه الأعمال فشملت الزراعة، والرعي، والصناعة، والتجارة، وغيرها من الحرف.

١ – المتصوفة والعمل الزراعي والرعوي:

قام متصوفة المغرب الأقصى بالعمل في زراعة أراضيهم، وقاموا بجميع العمليات الزراعية من حرث وحصاد ودرس. فكان أبو محمد خميس بن أبي زرح الرجراجي الأسود يملك أرضًا يقوم بزراعتها وخدمتها بنفسه، وكان لا يأكل إلا من عمل يده تقديرًا لقيمة العمل. وفي أحد الأعوام استحق فدانه الحصاد فتواصى

[1] المصدر السابق، ص ٣٤٨.

فتيان القرية على حصاده دون أن يعلموه، فأقبل أبو محمد وقد رآهم قد حصدوا جزءًا من فدانه فقال لهم: كفوا بارك الله فيكم، فقالوا له: ما حصدنا إلا طائعين متبرعين، فقال لهم: يكفيكم ما حصدتم فعسى أن تجمعوه، فجمعوا ما حصدوا، وحازه بموضع واحد فعزله وتصدق به وكره أن يأكل مما عملوه من غير أجرة[١].

وكان أبو عبد الله يلاسيف الرجراجي يقوم بأعمال الزراعة في أرضه، ويخدمها بنفسه[٢]، وغيرهم كثير من الصوفية الذين كانوا يعملون في زراعة أراضيهم[٣].

وهناك من المتصوفة من كان لا يملك أرضًا لزراعتها، ولكنهم كانوا يعملون بالأجر في أراضي غيرهم. منهم أبو الحسن علي الصنهاجي من أهل تادلا الذي كان يعيش من حراسة البساتين، والحصاد، وأنواع الخدمة الأخرى[٤]. وحين احتاج أحد ملاك الأراضي إلى حصاد في وقت الحصاد التمس أجيرًا على الحصاد، فوجد الصوفي عبد الله الجزولي من أهل سجلماسة، والمتوفى في حدود عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، فاستأجره فحصد له زرعه، ثم استعمله كل عامٍ في حصاد أرضه[٥].

كما مارس صوفية المغرب الأقصى أيضًا العمل الرعوي، فقد كان لأبي زكريا يحيى بن موسى المليجي من بلد رجراجة، أبقار يتولى رعايتها بنفسه، وحين سافر إلى المشرق للحج استأجر راعيًا ليقوم بالرعي مكانه[٦]. كما كان أبو يعزي

---

[١] التادلى :مصدر سابق، ص ١١٣.
[٢] المصدر السابق، ص ٣٥٧.
[٣] المصدر السابق، ص ٣٧٦، ٤٠٠.
[٤] المصدر السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.
[٥] المصدر السابق، ص ٢٧٨.
[٦] المصدر السابق، ص ١١٢.

يلنور المتوفى عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م يعمل راعيًا[١]. وجدير بالذكر أن هؤلاء المتصوفة كانوا يحثون الرعاة ومن يملك الدواب ألا يجعلوا هذه الدواب ترعى في أرض الغير لأن ذلك مخالفًا للشرع[٢]، ولم يكتفوا بالنصح والإرشاد، بل ضربوا المثل، والقدوة الطيبة لأفراد مجتمعهم. فمن المتصوفة من كانت له أبقار إذا حملها من داره لترعى، جعل على فمها كمامة، لئلا ترعى في أرض أحد، فإذا وصل إلى أرضه أزال الكمامة عن فمها، وجعلها ترعى في أرضه، فإذا أراد أن يعود إلى داره أعاد الكمامة، وساقها إلى داره[٣].

٢ – المتصوفة والعمل بالصيد وتربية النحل:

مارس حرفة الصيد الصوفي أبو حفص عمر بن معاد الصنهاجي من بلد أزمور المتوفى عام ٥٦١هـ/١١٦٥م، وكان يصطاد السمك من سواحل البحر المحيط، ويقتات بذلك، كما كان يقوم بجمع عسل النحل من البرية[٤]. وكان أبو موسى الدكالي من أهل سلا يجمع ما يلفظه البحر من مباح الأكل، فيبيعه ويشتري بثمنه خبزًا[٥]. وعمل أيضًا بحرفة الصيد الصوفي أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي من بلاد تادلا، وبها توفي عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م. وبالإضافة إلى ذلك كان هذا الصوفي يتخذ خلايا النحل، ويقوم ببيع العسل للإنفاق على نفسه، والتصدق على الفقراء[٦].

---

[١] المصدر السابق، ص ٢١٥.

[٢] المصدر السابق، ص ٢٥١.

[٣] المصدر السابق، ص ١٣٤.

[٤] التادلى :مصدر سابق، ص ١٨٣.

[٥] المصدر السابق، ص ٢٠٦.

[٦] المصدر السابق، ص ٤٠٣.

٣ – المتصوفة والعمل بالحرف والصناعات:

تعددت الحرف التي مارسها صوفية المغرب الأقصى، مما يؤكد مشاركتهم بإيجابية في النشاط الحرفي في المجتمع. فقد كان الصوفي أبو عمران موسى بن يدراس الحلاج يعمل حلاجًا للقطن في مدينة فاس[١]. وكان أبو عبد الله الصوفي يعمل خياطًا[٢]. كما عمل بحرفة الحياكة أيضًا الصوفي أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الصنهاجي الجباب الأزموري، المتوفى عام **٥٩٢هـ/١١٩٥م**[٣].

وهناك من المتصوفة من تخصص في صناعة الأطباق مثل أبي الحسن علي بن زكريا الأسود[٤]. وتخصص البعض في صناعة القدور مثل أبي زكريا بن يحيى بن ميمون الصنهاجي من بلد أزمور، وبها توفي عام **٦٠١هـ/١٢٠٤م**، وكان هذا الصوفي يصنع القدور ويبيعها ويشتري بثمنها شعيرًا، فيطحنه بيده، ويخبزه ويأكل منه[٥]. كما كان الصوفي أبو ويعزان بيريدن بن وبيدن الأيلاني، المتوفى عام **٦١٠هـ/١٢١٣م**، يعمل أيضًا في صناعة القدور، وكان يقتات بثمنها[٦].

أما الصوفي أبو سعيد عثمان اليرصجي من بلد دكالة، وتوفي في حدود **٥٩٠هـ/ ١١٩٣م**، فكاان يقوم بعمل أحجار الأرحاء التي تستخدم في طحن الحبوب[٧].

---

(١) ابن قنفذ: مصدر سابق، ص **٣٨**.

(٢) التميمي: مصدر سابق، ص **١٨٥**؛ التادلي: مصدر سابق، ص **٢٥٧**.

(٣) العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج**٢**، ص **٨٩**.

(٤) التادلي: مصدر سابق، ص **٢٦٨**.

(٥) المصدر السابق، ص **٤١٤**.

(٦) المصدر السابق، ص **٤٣١**؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج**١٠**، ص **١٩٦**.

(٧) التادلي: مصدر سابق، ص **٣١٩**.

ومن الحرف التي عمل بها صوفية المغرب الأقصى، حرفة دبغ الجلود، فقد كان أبو علي حسن بن علي المطغري، المتوفى عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م يعمل بدبغ الجلود، وإذا أراد أحد أن يستأجره على دبغ الجلود، يشترط على مستأجره أن يتوضأ متى انتقض وضوءه وأن يصلي الظهر والعصر في جماعة[١].

٤ – المتصوفة والعمل التجاري:

عمل بعض المتصوفة في النشاط التجاري من بيع وشراء. فقد كان لأبي إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي – وهو من أهل الجانب الشرقي من مراكش وتوفي عام ٥٨١هـ/١١٨٥م – دكانًا لبيع الإسفنج والهريسة، فإذا حصل من ثمن بيعها وربحها ما يكفيه ويكفي أصحابه، أطعم المساكين بقية ما تبقى عنده من الهريسة[٢]. كما كان أبو يعقوب يوسف بن علي المؤذن من أهل داي وتوفي عام ٥٥٧هـ/١١٦١م، يعمل عطارًا وله دكانًا في سوق مدينة داي[٣].

كما كان أبو محمد عبد الواحد بن تومرت الهسكوري الأسود يبيع الخضروات في السوق في قفة، وكان يرفض اتخاذ دكانًا في السوق، ويقول: "إذا حانت الصلاة توضأت ودخلت المسجد ووضعت قفتي عند ساريه، وإذا اتخذت دكانًا وحانت الصلاة، ومررت إلى المسجد يوسوس إليَّ الشيطان ويقول: لعلك سرق لك شيء فلا يصفو لي خاطري في الصلاة "[٤].

وعلى أي حال، فإن مشاركة صوفية المغرب الأقصى في أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة توضح أنهم فهموا أن التصوف الصحيح لا يرضى بحال أن تصرف العبادات أصحابها عن طلب الرزق والكسب. فالزهد أن يزهد الصوفي

---

[١] المصدر السابق، ص٣٨٤.

[٢] المصدر السابق، ص ٢٤١-٢٤٢؛ العباس بن إبراهيم: مدر سابق، ج٣، ص ٥٩

[٣] التادلي: مصدر سابق، ص ١٦٧-١٦٨.

[٤] المصدر السابق، ص٣٥٩.

فيما يملكه بكده وكسبه الحلال فيتصدق به على فقراء المسلمين، وليس الزهد أن يزهد المرء فيما لم تصل إليه يده، ولم يدخل في ملكه. ولذلك لم يعش هؤلاء المتصوفة عالة على مجتمعهم، فالعمل كما فهموه واجب شرعي لعمارة الأرض، ولمساعدة المحتاجين من الناس مما يدره هذا العمل من كسبٍ حلال.

خاتمة:

على أية حال أبرزت هذه الدراسة أهمية كتب المناقب في كتابة تاريخ الفئات المهمشة التي أهملت وغيبت في الحوليات التاريخية – وعلى ما أعتقد – دون قصد من مؤرخي هذا العصر، فظروف العصر وثقافته حالت دون ذلك، واقتصر مجال الكتابة التاريخية على التاريخ السياسي والعسكري، فهؤلاء المؤرخون لم يكن لديهم إدراك لأهمية كتابة تاريخ العوام، فمؤرخوا المشرق والمغرب اعتمدوا المنهج السائد في كتابة التاريخ في هذا العصر وهو أن الفرد هو صانع التاريخ.

وقد أمكن للباحث من خلال كتب المناقب من رسم صورة لحياة الصوفية في مجتمع المغرب الأقصى يظهر فيها عدم انعزال الصوفية عن مجتمعهم ومشاركتهم بإيجابية في أحداث عصرهم، كما تبرز الصورة أيضًا منهج هؤلاء في الحياة، وممارستهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.